العُمْرانُ ومَظَاهِرُ الحَضَارةِ وانعكاسُها في الشِّعر الجاهِليّ

أ.د. حسن فالح حسين بكور

د. علي محمد نزال الذيابات

الأردن – معان - جامعة الحسين بن طلال

كلية الآداب - قسم اللغة العربية وآدابها

Theabat71@yahoo.com

مستخلص

يتناول البحث قضية العمران ومظاهر الحضارة وانعكاسها في الشعر الجاهلي ، وقد اتبعت الدراسة المنهج الاستقرائي التحليلي من خلال تتبع الظاهرة في الشعر الجاهلي ، ولتحقيق ذلك تناولت الدراسة عدة مباحث منها : التمهيد ، ومفهوم العمران لغة واصطلاحا في المعاجم العربية ، ومفهوم العمران عند ابن خلدون ، وفي القرآن الكريم ، وأخيرا مظاهر العمران والحضارة في الشعر الجاهلي ، وخلصت الدراسة إلى مجموعة من النتائج كان من أبرزها : وجود المظاهر العمرانية ومنها القصور والمدن والقرى على نطاق ضيق في العصر الجاهلي ، كما توصلت الدراسة إلى أن حركة الشعر لم تكن منفصلة عن التطوُّر الحضاري المادي ، فقد كان الشعر مرآة تعكس مظاهر التمدُّن والتحضر باعتباره ديوان العرب .

الكلمات المفتاحية: العمران، مظاهر الحضارة، الشعر الجاهلي.

Abstract

This research tackles the issue of urbanism and aspects of civilization and its reflection in the pre-Islamic poetry. The study followed the inductive analytical approach by tracking the phenomenon in the pre-Islamic poetry. To achieve this, the study addressed several topics including: the prelude; the linguistic and contextual concept of urbanism in Arabic dictionaries; Ibn Khaldoun's concept of urbanism; the concept of urbanism in the Holy Koran; and finally the manifestations of urbanism and civilization in pre-Islamic poetry. The study reached a set of re-

sults, the most important of which are: the existence of urbanism manifestations including palaces, cities and villages was on a low level in the pre-Islamic era; poetry was not separate from the physical development of civilization, as poetry which is considered to be the Arab's Diwan was a mirror that reflects aspects of urbanism and civilization.

Key words: urbanism, aspects of civilization, pre-Islamic poetry.

قبل الولوج إلى عالم الشعر وبيان مدى مواكبته للعُمران ، من المناسب التعريف بمفهومي العُمران اللغوي والاصطلاحي، والكشف عن الدلالات المختلفة للعُمران وتحديد المفهوم المتعلّق بالبحث، إذ أن مفاهيم العُمران متنوعة ومختلفة، وتناوُلها بشموليتها يُفضي إلى المتاهات والإطالة والاستطراد ، وإن تناول بعد معين من شأنه إشباع المسألة والغوص في تفاصيلها وتسليط الضوء على مجاهيلها ومكنوناتها .

وإذا كان العُمران يشكّل بعداً مهماً من الأبعاد الحضارية، فإنّ إلقاء الضوء على حضارة العرب قبل الإسلام يؤسّس للحديث عن مدى تأثّر العرب بحضارة الأمم المجاورة وآليات هذه العلاقة ووسائلها وكذلك مدى تمثّل العرب وتشرّبهم للحضارة .

ومن هنا يغدو الحديث عن العلاقة بين العُمران والحضارة ضرورة أساسية للكشف عن نضوج العقلية العربية وتفكيرها ، ومدى ارتقائها في سُلّم الحضارات والإسهام في تطويرها ، وكذلك بيان الفن المعماري الذي وصل إليه العرب .

إذا كُنّا نؤمن بوجود العُمران قبل الإسلام ، فإنّ وقفة عند المعالم العُمرانية ومظاهرها في ذلك العهد تُعَدُّ حتمية لا مناص منها ؛ لبيان مدى مواكبة الشعر لهذه المعالم العُمرانية، فمن خلاله يمكن الوقوف النظري عند حضارة العصرالجاهلي بأبعادها المادية والطبيعية، ثم يأتي الشعر ليسجَّل هذا البعد المادي من خلال رؤاه الفنية والجمالية . أغلب الظنّ أن أيّ بحث لن يكشف المتآلفات في الاختلافات إلا إذا استنطق ما وراء الظاهر وراح يغوص في تعريفاتها وإرشاداتها، ففي المتناقضات نجد أحياناً صلات قُربى وتشابه، وسيتوقف البحث في هذا الفصل ليعالج المفهوم الاصطلاحي للعُمران ، وسيكشف عن مفهوم العُمران عند ابن خلدون في مُقدّمته التي يخصصها للحديث عن العُمران في جوانبه المختلفة وأحواله المتعدِّدة ، وسيعرض هذا الفصل لأبعاد العُمران المختلفة والإضاءات التي يسلّطها ابن خلدون بصورة معمّقة

ومفصَّلة، والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا السياق : هل ثمة تقارب بين المفهومين اللغوي والاصطلاحي للعُمران ؟ وسيكون هذا السؤال مقدّمة لطرح السؤال الكبير الذي يدور حوله البحث وهو : هل العُمران مفهوم اصطلاحي محدّد يشغل حيّزاً واضح المعالم والأبعاد؟ أم أن العُمران مفهوم واسع تنتشر ظلاله في زوايا متعدّدة ويحتل مساحة واسعة في سُلّم الحياة وآفاقها ؟

وإذا كان العُمران يمتد أفقياً وعمودياً في فضاء هذا الكون الرّحب ويبسط أجنحته ليغطّي آماداً شاسعة ، فهل تناول البحث هذه الفضاءات جميعها وعالجها في الشعر ؟ أم أنه تناول جزئية من هذا الكمّ المتراكم وسلَّط الضوء عليها بصورة معمّقة وتفصيلية وأنار جوانبها القاتمة ؟

هذه الأسئلة وسواها ستكون مدار البحث.

مفهوم العُمْران لغة واصطلاحاً

عمر: العَمْر والعُمُر والعُمْر : الحياة ، يقال قد طال عَمْرُهُ وعُمْرُه ، لغتان فصيحتان ، فإذا أقسموا فقالوا : لَعَمْرُك : فتحوا لا غير، والجمع أعمار، وسُمّي الرَّجُلُ عَمْراً تفاؤلاً أن يبقى ، قال المنصف في البصائر والعمرو والعمر اسم عمارة البدن بالحياة فهو دون البقاء ، فإذا قيل طال عمره فمعناه عمارة بدنه بروحه ، وإذا قيل طال بقاؤه فليس يقتضي ذلك ، لأنّ البقاء ضد الفناء ولفضل البقاء على العمر وصف الله تعالى به وقلّما وصف بالعمر والعمر بالضم المسجد والبيعة والكنيسة، سميت باسم المصدر لأنه يُعمر فيها أي يُعبد ، والعَمر بالفتح الدّين ، وأيّاً كان فإنه لا يُستعمل في القَسَم إلا مفتوحاً، لقوله تعالى: ﴿ لَعَمْرُك إنَّهم لفي سَكْرتِهِمْ يعمهون ﴾[1] لم يقرأ إلا بالفتح ، واستعمله أبو خراش في الطير :

[1] - سورة الحجر : آية ١٥

لَعَمْرُ أبي الطَّيْر المُرِنّةِ عُذْرَةً على خالدٍ، لقد وَقعْتَ على فمِ

أي لحم شريف كريم[١] .

وروي عن ابن عباس في قوله تعالى : لَعَمْرُك : أي لحياتك ، قال وما حلف الله بحياة أحد إلا بحياة النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال أبو الهيثم : النحويون ينكرون هذا ويقولون معنى لَعَمْرُك : لَدينُك الذي تَعْمُر ، وأنشد لعمر بن أبي ربيعة :

أَيُّها المُنكِحُ الثُّرَيَّا سُهيلاً عَمْرَكَ اللهَ كيف يجتمعان ؟

قال : عَمْرَك الله ، عبادتك الله ، فنصب وأنشد :

عَمْرَك الله ساعةً حَدّثينا وذرينا من قولِ من يؤذينا

فأوقع الفعل على الله عز وجلّ في قوله : عَمْرَك الله [٢].

ومما سبق يتضح أن الكلمات " عَمْر و عُمُر وعُمْر " تعني الحياة ، ومن هنا سمّى العرب الرجل عَمْراً تيمّناً بمدلول الكلمة ومعناها وتفاؤلاً بالبقاء ، لأنّ عَمْراً تحمل في طيَّاتها بُعداً حيوياً نقيضاً للهدم ، وتشي بتلاحم الجسد مع الرّوح التي تنفث فيه الحياة والحركة، ولا يعني العُمْر

ديمومة البقاء واستمرارية الحياة والسير بعد الخلود ، فالعُمْر والبقاء ليسا مترادفين ، فليس العمر بقاءً دائماً ، ولكنّ البقاء يشمل العُمر ويتضمّنه وليس العكس صحيحاً ،

[١] - ابن منظور: لسان العرب، ، دار صادر، بيروت، مادة عمر، وانظر: الزبيدي ، تاج العروس، ، مادة عمر

٢ - المصدر نفسه ، مادة عمر

وعليه فإنّ هناك نوعاً من التباين بين مدلولي العُمر والبقاء ، فالعُمر زمنٌ حياتي يغطّي مساحة محدّدة ذات بداية ينطلق منها وينتهي عند نقطة محدّدة، فعُمر الإنسان يبدأ من زمنٍ معين وينتهي بحد معين .

ولا يمكن إطلاق كلمة البقاء بديلاً عن العُمر ، لأن حياة الإنسان مؤطرةٌ بزمنٍ محدّد ذي بداية ونهاية ، والبداية تعني الحياة والحركة ، والنهاية تعني الفناء والزّوال . ويطلق العُمْر على أماكن العبادة كالمسجد والبيعة والكنيسة ، لتعبُّد الناس فيها وإقامة الشعائر الدينية ، وأما العَمْر بفتح العين فتعني الدّين في قوله لَعَمْرُك .

وعَمِرَ الرَّجلُ يَعْمَرُ عَمَراً وعَمَارَةً وعَمْرَاً وعَمَر ويَعْمُرُ ويَعْمِرُ

بمعنى عاش وبقي زماناً طويلاً ، قال لبيد :

وعَمَرْتُ حَرْساً قبل مجري داحسٍ لو كان للنفس اللَّجُوج خُلُودُ

وقال جرير :

لئن عَمِرَتْ تَيْمٌ زماناً بِغِرَّةٍ لقد حُدِيَتْ تيْمٌ حُداءً عصبصبا

وعمَّره الله وعَمَره : أبقاه ، وعمَّر نَفْسَه : قدّر لها قدراً محدوداً، وقوله عز وجل وما يُعَمَّر من مُعَمَّرٍ ولا يُنقصُ من عُمُره إلا في كتاب ، فُسّر على وجهين ، قال الفراء : ما يُطوَّل من عُمُرِ مُعَمَّرٍ ولا يُنقصُ من عُمُره ، يريد الآخر غير الأول ثم كني بالها كأنه الأول، ومثله في الظلام : عندي درهم ونصفُه، والمعنى ونصف آخر، فجاز أن تقول نصفه لأن لفظ الثاني قد يظهر كلفظ الأول فكُني عنه ككناية الأول ، قال : وفيها قول آخر : ما يُعَمَّر من مُعَمّرٍ ولا يُنْقص من عُمرُه، يقول : إذا أتى عليه الليل

والنهار نقصا من عُمرُه، والهاء في هذا المعنى للأول لا لغيره، لأن المعنى ما يُطوَّل ولا يذهب منه شيء إلا وهو مُحصىً في كتاب[1].

وكلمة أبقاه – الواردة في " وعمّره الله وغَمَرَه " – لا تعني ديمومة البقاء واستمرارية الحياة، ومن هنا فهي ليست نقيض الفناء ، لأن البقاء المطلق هو المقابل للفناء ، وهذا يتضح من خلال تخصيص البقاء ، فهو قدرٌ محدود يحتلّ مساحةً ذات أبعادٍ وآفاقٍ تتناقص وتسارع الزّمن إلى أن تصل إلى النهاية والنقطة التي لا يمكن تجاوزها.

فَعُمُر الإنسان محدود، يبدأ بطي زمنه بصورة تدريجية ، فالليل والنهار وهما الزمنان اللذان يستظلّ بهما الإنسان يشكّلان قوّة انتزاع بقاء الإنسان على هذه البسيطة ، من خلال التعاقب الدائم المستمر الذي يُفضي إلى تآكل زمن البقاء " العُمُر " ، فالعُمُر والبقاء المحدود يتناغمان في الدلالة والمعنى ، والعُمُر المحدود والبقاء المطلق يتضادان ولا يلتقيان .

والعُمْرى : ما تجعله للرجل طول عُمُرِك أو عُمُرِه ، وقال ثعلب : العُمْرَى أن يدفع الرجل إلى أخيه داراً ، فيقول : هذه لك عُمُرَك أو عُمُري ، أيُّنا مات دُفِعَت الدَّار إلى أهله، وكذلك كان فعلهم في الجاهلية ، وقد عَمَرْتُه إيَّاه وأعمَرته : جعلته له عُمُرَه أو عُمُري ، وفي الحديث : لا تُعْمِروا ولا تُرْقِبوا ، فمن أعْمِرَ داراً أو أُرقِبها فهي له ولورثته من بعده ، وهي العُمْرَى والرُّقبى ، يُقال أعَمْرتُه الدارُ عُمْرى أي جعلتُها له يسكنها مدة عُمره فإذا مات عادت إليّ [2] .

وإذا ما تفحصنا دلالة العُمْرَى من خلال سياقاتها المختلفة في الأمثلة السابقة، فإن محدودية الحياة والزمن والمحدّد هو المحور الرئيس للعُمُر ، فالعارية كالدار التي تجعلها للآخر تُسمى العُمْرَى، وإذا ما مات أحدُ الطرفين المستعير والمستعارُ له، فإن

[1] - ابن منظور : لسان العرب ، مادة عمر
[2] - ابن منظور : لسان العرب ، مادة عمر

الدار تنتقل إلى الآخر، أي أنّ هناك وقتاً محدّداً لعملية الانتقال مشروطاً بوفاة الآخر، وهذا الوقت المحدّد هو حياة تنتظم في سلك واضح المعالم والأبعاد يتنافى مع ديمومة البقاء والخلود .

فالعُمْرَى ما تجعله للآخر طول عُمْرِه ، أي ما دام على قيد الحياة ، والعَمْر والعُمُر ضربٌ من النخيل وقيل بل هو نخل السكر وهو معروف عند أهل البحرين .

قال المرار بن منقذ :

عبق العنبر والمسك بها فهي صفراء كعرجون العُمُر

وعُمري شجرة قديمة ، ينسب إلى العُمْر، وقال ابن الأثير : الشجرة العُمريَّة هي العظيمة القديمة التي أتى عليها عُمْرٌ طويل ، فيقال للسدر العظيم النابت على الأنهار ، عُمْري وعُبْري على التعاقب[1] .

وينسحب مدلول الكلمة عَمر على سكن المنازل وجعلها آهلة بالناس ، فنقول عَمَر الله بك فذلك يَعْمُرُه عَمارة وأعْمَر جعله آهلاً ، ومكان عامرٌ : ذو عِمارة، ومكان غير عامر، ولا يُقال أعمر الرجل منزله، وأعمرتُ الأرض : وجدتها عامرةً ، وعَمَرتُ الخراب أعمُره عِمارة،فهو عامرٌ أي معمور ، مثل وافق أي موفوق، وعيشة راضية أي مرضية ، وعَمر الرّجل ماله وبيتَه يَعْمُرُه عِمارة وعُموراً وعُمْراناً لزِمَه ، وأنشد أبو حنيفة لأبي نخيلة في صفة نخل:

أدام لها القَصْرين ريّاً، ولم يكنْ كما ضنَّ عن عُمْرانها بالدراهِمِ

يقال لساكن الدّار : عامر ، والجمع عُمّار[1] .

١ - الزاوي ، الطاهر أحمد ، دار الكتب العلمية بيروت، باب العين، عمر ، وانظر فاكهة البستان : عبد الله البستاني ، الطبعة الأمريكية ، بيروت، ١٩٣٠ .

ومما ورد آنفاً يبدو أن هناك صلةً كبيرة بين مضمون عمارة المنزل بأهله ، وكلمة عَمَر التي تعني الحياة وطول العُمُر ، فإذا ما بحثنا عن مدى الصلة بين الحياة المؤقتة بزمنٍ معين التي أطلق عليها العُمُر ، وبين عمارة المنزل بأهله، فإن هناك رابطاً بينهما، فالمسكن الآهل بالناس لا تدوم عمارته بينهم ، فسرعان ما تتحوّل الحياة العامرة إلى هدمٍ وزوال وخراب، فثنائية الحياة والهدم ما زالت تُلاحق جذر الفعل عَمَر عبر استخداماته المختلفة وسياقاته المتنوِّعة .

والعمرة : طاعة لله عز وجل ، والعمرة في الحج معروفة وهي زيارة بيت الله الحرام بشروط مخصوصة ، والعُمْرَة مأخوذة من الاعتمار وهو الزيارة ، ومعنى اعتمر في قصد البيت أنه إنّما خُصّ بهذا لأنه قصد بعمل في موضع عامر ، ولذلك قيل للمُحرم بالعمرة مُعتمر[٢] .

وفي هذا السياق نلحظ أن الجذر الثلاثي " عَمَر " ما زالت دلالته تمتد في اشتقاقاته المختلفة ، فالعُمرة زيارة بيت الله الحرام والقيام بأعمال محدّدة في مكان معين مزدحم بالناس، وهذا يعني التقاء كلمة عمر مع العُمْرَة ، في ازدحام المكان والسكن بالناس والقيام بأعمال محدّدة ثم تنتهي عملية الاعتمار .

والعمارُ والعَمَارة كل شيءٍ على الرأس من عمامة أو قلنسوة أو تاج أو غير ذلك ، وقد اعتمر أي تعمّم بالعمامة، ويقال للمُعتمِّ : مُعتمرٌ ومنه قول الأعشى :

فلمَّـــا أتانـــا بُعيـــد الكـــرى سـجدنا لـــه ورفعنـــا العمـــارا

أي وضعناه فوق رؤوسنا إعظاماً له .

١ - ابن منظور : لسان العرب ، مادة عمر
٢ - المصدر نفسه، مادة عمر

ومما يدلِّل على زمنية العُمر ومحدوديته أن كلمة عمَّار مأخوذة من العَمْرِ وهو البقاء، فيكون باقياً في إيمانه وطاعته وقائماً بالأمر والنهي إلى أن يموت ، لأن عَمَر ربه أي عبده، وإنه لعامرٌ لربّه أي عابد وحكى الحياني عن الكسائي : تركته يعمرُ ربَّه أي يعبده يصلي ويصوم .

والعِمارة والعمارة أصغر من القبيلة ، وقيل هو الحي العظيم الذي يقوم بنفسه وينفرد بظعنها وإقامتها ونُجعتها، وهي من الإنسان الصدر ، سُمِّي الحي العظيم عِمارة بعِمارة الصدر وجمعها عمائر ، قال الجوهري : والعَمَارة القبيلة والعشيرة، قال التغلبي:

لكل أُناسٍ من معدّ عَمَارةٍ عَرُوضٌ إليها يلجأون وجانب [1]

وهنا يبرز مدلول جديد للعمارة والعِمَارة ، ولكنه في ذلك يبقى على صلة بجذره الثلاثي الذي كشف النقاب عن أبعاده ودلالاته ، فإذا كانت العَمَارة تعني الحي المستقل بشؤونه وقضاياه الحياتية أو المختلفة أو القبيلة ، فهذا يعني أن ثمة توسُعاً في حدود المفهوم اللغوي وإضافة جديدة في الدلالة ، فالعشيرة أو القبيلة شكّلت هذا البعد وهذه الإضافة الجديدة لمفهوم العَمَارة ، وإذا بحثنا عن الروابط والخيوط التي تتشكّل بين اشتقاقات الفعل الأصلي (الجذر)، فهل يمكننا تلمّس النسيج والألوان المتقاربة أو المتماثلة بين هذه المشتقّات ؟ أغلب الظن أن هناك لوناً ما زال يطلّ عبر الأبواب المختلفة لمشتقات الفعل " عَمَر " ولفظ حضوره الدائب المستمر الذي يتربّع في كل السياقات المتنوعة ، وأقصد بذلك مدلول كلمة " عَمَر " الحياة والبقاء المحدّد بزمن .

١ - الفراهيدي ، الخليل بن أحمد : كتاب العين ، تحقيق : د. مهدي المخزومي وآخرون، باب العين والراء والميم، وانظر : لسان العرب وتاج العروس مادة عمر .

فالحي أو القبيلة تجمُّع بشري يرتبط بمقوِّمات معينة ويسلك في منظومة قيم يتقّيأ بها ، وهذه تشكّل إطاراً حياتياً له ومرجعيّة ينهل منها ما يرسم له منهاج حياته حاضره ومستقبله ، وهي الملجأ الذي يأوي إليه ويحتمي بها تحرسه وتحفظ عليه كيانه ، وهذه الدلالة ستلتقي مع دلالة مفهوم " العُمْرَان " محور البحث والذي ستُفرد له معالجة وافية متكاملة .

ابن خلدون وظاهرة العمران

وإذا ما انتقلنا إلى مفهوم العُمْران عند ابن خلدون ، فإننا سنعثر على مساحة شاسعة لأبعاد هذا المفهوم ودلالاته ، ويحصره في ستة فصول ، فمنها ما يتعلق بالعُمران البشري والعُمران البدوي، وفي الدول والخلافة والمُلك وذكر المراتب السلطانيّة ، والعُمران الحضري والبلدان والأمصار ، وكذلك في الصنائع والمعاش والكسب ووجوهه وأخيراً في العلوم واكتسابها وتعلّمها [1] .

وفي حديثه عن العُمران البشري يرى ابن خلدون أن الاجتماع الإنساني ضروري ويعبّر الحكماء عن هذا بقولهم : " الإنسان مدني بالطبع ، أي لا بد من الاجتماع الذي هو المدنية في اصطلاحهم وهو معنى العُمران ، ويستعرض ابن خلدون جملة من الأمثلة لبيان معنى العُمران المتعلَّق بالاجتماع الإنساني ، ويطرح على ذلك مثالاً بالغذاء الذي يُعَدُّ ركيزة أساسية وحاجة تتوقف عليه حياة الإنسان ، والحصول عليه يتطلّب جهداً جماعياً مشتركاً من خلال زراعته وتصنيعه وإنتاجه، و تتطلّب هذه الأعمال آلات متعدّدة وصنائع كثيرة يستحيل للشخص الواحد تحقيقها والقيام بها بمفرده ، فلا بدّ من اجتماع القدرات البشرية لتحصيل القوت من خلال التعاون والتعاضد المشترك بين مختلف فعاليات الإنتاج .

[1] - ابن خلدون : مُقدّمة ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، دار الجيل، بيروت، ص ٣٨-٤٦ .

ويرى ابن خلدون أن الإنسان يحتاج إلى الدِّفاع عن نفسه من خطر الحيوانات المفترسة ، ومن هنا فلا بد من الاستعانة بأبناء جنسه، وما لم يكن هذا التعاون فلا يحصل له قوت ولا غذاء ولا تتمّ حياته لما ركبه الله تعالى عليه من الحاجة إلى الغذاء في حياته ، ولا يحصل له أيضاً دفاع عن نفسه لفقدان السلاح فيكون فريسة للحيوانات ويعاجله الهلاك على مدى حياته ويبطل نوع البشر ، وإذا كان التعاون حصل له القوت للغذاء والسلاح للمدافعة ، وتمت حكمة الله في بقائه وحفظ نوعه ، ومن هنا فإنّ هذا الاجتماع ضروري للنوع الإنساني ، وإلا لم يكمل وجودهم وما أراده الله من اعتمار العالم بهم واستخلافه إيّاهم ، وهذا هو معنى العُمران البشري [١] .

ويعرض ابن خلدون للعُمران البدوي والأمم الوحشية ، ويرى أن أهل البدو هم المنتحلون للمعاش الطبيعيّ من الفَلْح والقيام على الأنعام ، وهؤلاء يقتصرون على الضّروري من الأموات والملابس والمساكن وسائر الأحوال والعوائد، ومقصرون عما فوق ذلك من الكماليّ فيتخذون البيوت من الشَّعَر والوبر أو الشّجر ..... أو الكهوف للإستظلال والكِنِّ، وأما أقواتُهم فيسيرة ، ومن هنا فإنّ البدو يقتصرون في تلبية احتياجاتهم الضرورية عاجزون عن تحقيق حياة التّرف والكمال في أحوالهم وعوائدهم ، ولا شك فإن الضّروريّ أقدم من الكماليّ وسابق عليه ، لأن الضروريّ أصلٌ والكمالي فرع ناشىءٌ عنه ، ولا يتحقّق الكمالي وحياة الترف إلا إذا كان الضروري حاصلاً ، فخشونة البداوة قبل رِقّة الحضارة ، ولهذا نجد التمدُّن غايةً للبدوي ، فالبداوة أصل للحضر وأحوال الحضارة ناشئة عن أحوال البداوة، ويستعرض ابن خلدون مزايا أهل البدو من القيم والعادات وتفوّق البدوي على الحضري في هذا المجال[٢] .

ويعتقد ابن خلدون أن عمران البادية ناقصٌ عن عُمران الحواضر والأمصار ، لأنّ عُمران البادية لا تتوافر فيه صنائع الحواضر من نجّار وخياط وحدّاد وغير ذلك مما

١ - المصدر نفسه : ص ٤٦-٤٨
٢ - ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، ص ١٣٢- ١٣٨

يُقيم لهم ضروريات معاشهم في الفلْح وغيره ، فنجد العملة النقدية من الدراهم والدنانير مفقودة لديهم ، حيث يتداولون أعواضها من منتجات الزراعة وأعيان الحيوان أو فضلاته ألباناً وأوباراً وأشعاراً وإهاباً ، ومن هنا فإن البوادي من القبائل مغلوبون لأهل الأمصار لحاجتهم للعُمران الناقص لديهم[1] .

وينتقل ابن خلدون إلى ذكر أحوال الدولة العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية ، ويستعرض جملة من الحقائق منها ، أن الملك والدولة العامة يتحققان من خلال العصبية في بداية النشأة والتأسيس ، أما إذا تحقق الاستقرار للدولة وبسطت هيمنتها ونفوذها وألف الناس قيادتها وسلطانها وسلّموا أمور حياتهم لها وتحقّق لهم الأمن فإن الدّولة قد تستغني عن العصبية ولا سيّما إذا ألّفت بين قلوب الناس وانصرفت إلى الحق ورفضت الدُّنيا والباطل ، عندها يقلّ الخلاف ويزداد التعاون والتعاضُد فتزداد الدولة قوة .

ويستعرض ابن خلدون عُمر الدولة والملك فيرى أن من أسباب زوالها تفرُّد الملك بالمجد وحصول الترف والدعة ، كما أن للدولة عمراً كما هو الحال للبشر ، وللدولة أطوار تمرّ بها ، فمن طور الظّفر بالبغية إلى طور الاستبداد والفراغ حيث تشييد المباني الحافلة والمصانع العظيمة والأمصار المتّسعة والهياكل المرتفعة إلى طور القُنوع والمسالمة إلى طور الإسراف والتبذير حيث الشهوات وتلف ما بناه الأولون فيحصل الهرم ويستولي الدولة الهرم والمرض المُزمن فيكون ذلك إيذاناً بانقراض الدولة وزوالها .

ويستعرض ابن خلدون قوة الدولة ويرى أن آثارها إنما تحدث عن قوّتها فمن ذلك مباني الدولة وهياكلها العظيمة ، فإنّما تكون على نسبة قوة الدولة في أصلها لأنها لا تتمّ إلا بكثرة الفَعَلة واجتماع الأيدي على العمل بالتعاون فيه ، فهناك مصانع قوم عاد

١ - المصدر نفسه ، ص ١٦٩

وثمود وإيوان كسرى وبلاط الوليد بدمشق وجامع بني أمية بقرطبة والقنطرة وبناء الحنايا لجلب الماء ، وهذه الأفعال للأقدمين إنما كانت بالهندام واجتماع الفَعَلَة وكثرة الأيدي عليها ، ومن هنا شُيّدت تلك الهياكل والمصانع والدّيار والمساكن ، وإنّ هذه الآثار العظيمة من المباني إنما هي الحضارة حيث التفنّن في التّرف وإحكام الصّنائع المُستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمباني والفُرُش والأبنية وسائر عوائد المنزل وأحواله، فلكل واحد منها صنائع في استجادته والتأنّق تختص به ويتلو بعضها بعضاً [1](١) .

ويتناول ابن خلدون فصلاً عُمرانياً يتعلق بالمعاش ووجوبه من الكسب والصنائع، حيث يعرض لحقيقة الرزق والكسب هو قيمة الأعمال البشرية ، ويرى أن البلاد إذا تناقص عُمرانها ذهب رزقُها حتى أن الأنهار والعيون ينقطع جَرْيُها في القفْر لما أنَّ فور العيون إنما يكون بالإنباط والامتراء الذي هو بالعمل الإنساني كالحال في ضُروع الأنعام ، فما لم يكن إنباطٌ ولا امتراء نضبت وغارات بالجملة كما يخفُّ الضَّرْع إذا تُرك امتراؤه وانظُرْه في البلاد التي تغور فيه العيون لأيام عُمرانها، ثم يأتي عليها الخراب تغور مياهُها جملة كأنها لم تكن ، ويستعرض ابن خلدون وجوه المعاش العُمرانية من حيث التجارة والفلاحة والصناعة ، فهذه وجوه طبيعية للمعاش ، والفلاحة متقدِّمة عليها كلها فهي بسيطة وطبيعية فطرية لا تحتاج إلى نظر وعلم ، وأمّا الصنائع فهي متأخرة عن الفلاحة لأنها مركّبة وعلمية تُصْرف فيها الأفكار والأنظار ، ولا توجد إلا عند أهل الحضر الذي هو متأخّرٌ عن البدو وثان عنه ، وأمّا التجارة فهي محاولة الكسب بتنمية المال بشراء السلع بالرّخص وتبيعها بالغلاء ، كأن تكون السلعة من دقيق أو زرع أو حيوان أو قماش وذلك القدر النامي يسمّى ربحاً ، وأمّا الصّناعة فهي مكلة في أمر علمي فكري وبكونه علمياً هو جسماني محسوس ، وتنقسم الصنائع إلى ما يختص بأمر المعاش من حيث الضرورة أو غيرها إلى ما

[1] - ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص١٧٠-٢٠٣

يختص بالأفكار التي هي خاصيّة الإنسان من العلوم والصنائع والسياسة ، ومن الأوّل الحياكة والجزارة والنجارة والحدادة وغيرها ، ومن الثاني الوِراقة وهي معاناة الكتب بالإنتساخ والتجليد ، ومن الثالث الجندية وأمثالها [1] .

ويفصل ابن خلدون القول في الصناعة التي يعدّها من مظاهر العُمران، فمنها الفلاحة والبناء والخياطة والنجارة والحياكة والكتابة والوِراقة، فأما الفلاحة في صناعة ثمرتُها اتخاذ الأقوات والحبوب بالقيام على إثارة الأرض لها وعلاج نباتها وتعهُّده بالسقي والتنمية إلى بلوغ غايته، وهذه أقدم الصنائع لأنها محصّلة للقوت مكملة لحياة الإنسان ، وقد كانت هذه الصناعة مرتبطة بالبدو ، وأما صناعة البناء فهي أوّل صنائع العُمران الحضري وأقدمها وهي الخبرة في اتخاذ البيوت والمنازل للكِنّ والمأوى للأبدان في المدن وهذه الصناعة البنائية يختص بها أهل الحضر ويبعد عنها أهل البداوة لقصور أفكارهم عن إدراك الصنائع البشرية فيهرعون إلى الكهوف أو بيوت الشَّعر .

وأما صناعة النِّجارة فهي من ضروريات العُمران، ومادّتها الخشب الذي يُصنع من الشجر حيث يتخذ أهل البدو منه العُمُد والأوتاد لخيامهم والحدوج لظعائنهم والرِّماح والقسيّ والسِّهام لسلاحهم، بينما يتخذ أهل الحضر الخشب سقفاً لبيوتهم، كما يتخذونها لتصنيع الكراسي والأبواب، وأمّا صناعة الحياكة والخياطة فهما ضروريتان في العُمران لحاجة البشر إليهما، فالحياكة تُستخدم لنسج الغَزْل من الصّوف والكتّان والقُطن، وأما الخياطة فتختصّ بتقدير المنسوجات على اختلاف الأشكال والعوائد تُفصَّل بالمقراض قِطعاً مناسبة للأعضاء البدنية، وهذه الصناعة مختصّة بالعُمران الحضري لِما أنّ أهل البدو يستغنون عنها وإنما يشتملون الأثواب اشتمالاً، وإنما تفصيل الثياب وتقديرها وإلحامُها بالخياطة للّباس من مذاهب الحضارة وفنونها، ومن

١ - ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص ٤٢١- ٤٤٤

هنا نلحظ تحريم المخيط في الحجِّ لما أن مشروعية الحج مشتملة على نبذ العلائق الدنيويّة كلِّها، وهاتان الصناعتان قديمتان لِما أنّ الدِّفءَ ضروريٌّ للبشر في العُمران المعتدل [1] .

ويتناول ابن خلدون الخط والكتابة كمظهر من مظاهر العُمران ويعده من عداد الصنائع الإنسانية، ويرى أن الخط رسومٌ وأشكال حرفيّة تدلّ على الكلمات المسموعة الدّالة على ما في النفس، ثم يُحدّد ابن خلدون مصدر معرفة الخط بالنسبة لأهل الحجاز على أنّهم لُقِّنوها من الحيرة ولُقِّنها الحيرة من التبابعة ويقال إنّ الذي تعلّم الكتابة من الحيرة هو سفيان بن أُميّة،

ويُقال حرب بن أُميّة ، وأخذها من أسلم بن سُدرة وهو قولٌ ممكن وأقرب ممّن ذهب إلى أنهم تعلَّموها من إياد أهل العراق لقول شاعرهم :

قــومٌ لهــم ســاحة العــراق إذا ســارُوا جميعــاً والخــطّ والــتعلمُ

وهو قول بعيد لأنه أراد وإن نزلوا ساحة العراق فلم يزالوا على تأثر من البداوة والخطّ من الصنائع الحضريّة ، وفيما يتعلق بصناعة الورق فإنها من توابع العُمران حيث كثرت صناعة الجلود التي تُكتب عليها الصُّكوك والرسائل [2] .

ويستعرض ابن خلدون العلم والتعليم ويرى أنهما من طبيعة العُمران البشري ، ويذكر أصناف العلوم الواقعة في العمران ويتوقف عند علوم القرآن من التفسير

[1] - المصدر السابق ، ص ٤٤٣-٤٥٦

٢ - ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص٤٦٣-٤٦٨

والقراءات وعلوم الحديث والفقه وعلم الفرائض والكلام والتصوّف والعلوم العقلية والعددية والهندسية والطب والكيمياء وعلوم اللغة والأدب[1] .

كما يستعرض ابن خلدون مظاهر العُمران البنائي من حيث المدن العظيمة والهياكل المرتفعة، فتحتاج الهياكل العظيمة جداً من البناء إلى التعاون ومضاعفة القُدَر البشريّة، وقد تكون المباني في عظمها أكثر من القُدر مفردةً أو مضاعفة بالهندام فيحتاج إلى معاودة قُدر أخرى مثلها في أزمنة متعاقبة إلى أن تتم، فيبتدئ الأول منهم بالبناء ويعقبه الثاني والثالث، وكل واحد منهم قد استكمل شأنه في حشر الفَعَلَة وجمع الأيدي، وخير مثال على ذلك ما نقله المؤرخون في بناء سد مأرب، وأن الذي بناه سبأ بن يشجب وساق إليه سبعين وادياً، وعاقه الموت عن إتمامه، فأتمه ملوك بني حمير من بعده، ويعرض ابن خلدون إلى المعايير التي ينبغي اتباعها والشروط الواجب توافرها عند اختطاط المدينة وبنائها، فمنها الموقع المناسب في مكان ممتنع فإما على هضبة متوعِّرة من الجبل وإما باستدارة بحرٍ أو نهرٍ بها، حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة فيصعب على العدو اقتحامها أو مهاجمتها، كما ينبغي مراعاة طيب الهواء للسلامة من الأمراض، فلا تُبنى بالقرب من المياه الراكدة، ومما يُراعى من المرافق في المدن طيب المراعي لسائمتهم، وكذلك المزارع فإن الزروع هي الأقوات .

ويتناول ابن خلدون بعض المظاهر العُمرانية البنائية كالمساجد والبيوت ، ويرى أن هناك ثلاثة مساجد أفضل بقاع الأرض حسبما ثبت في الصحيحين وهي مكة والمدينة وبيت المقدس.

ويستعرض ابن خلدون علة قلة المدن والأمصار بالمغرب ، ويعزو ذلك إلى البربر الذي كان عمرانهم بدوياً فلم تترسّخ الحضارة في ملكهم ولم تكثر مبانيهم . كما

[1] - المصدر نفسه: ص ٤٧٦-٦١٩

أنّ الصنائع بعيد عن البربر لعراقتهم في البداوة ، والصنائع في توابع الحضارة ، وإنّما تتم المباني بها ، ولمّا لم يكن للبربر انتحال لها ، لم يكن لهم تشوُّف إلى المباني ، ومن هنا كان معظم عُمران إفريقيا والمغرب يدوياً كالخيام والكُنن في الجبال .

وأما عُمران العجم فكان كله أو أكثره قرىً وأمصاراً ورساتيق [١]، وإذا كانت مباني البربر قليلة، فإن المباني والمصانع في الملة الإسلامية قليلة أيضاً، لأن الدّين يمنع من المغالاة في البنيان والإسراف فيه ، فقد نهى عُمر بن الخطاب عن البناء على ثلاثة أبيات أو المطاولة في البنيان، ولمّا بَعُد العهد بالدين وتسرّب الترف والدّعة عندها شيّد العرب المباني والمصانع وكثُر اختطاط المُدن ولكنّ هذه المباني والمدن العظيمة التي شيّدها العرب وبنوها لم تعمِّر طويلاً فسرعان ما اندثرت وتسلل إليها الهدم والخراب ، ويعود ذلك إلى عدم مراعاة الشروط الواجب توافرها في اختطاط المدينة كما مرّ آنفاً .

وتجد الإشارة إلى أنّ المدن والأمصار إذا اختطّت فإنها تكون قليلة المساكن في بداية عهدها ، وقليلة آلات البناء من الحجر والجير فيكون بناؤها عندئذ يدوياً ، فإذا تعظم عُمران المدينة وكثر سكانها كثرت الآلات بكثرة الأعمال حينئذ ، وإذا تراجع عمرانها وخفّ ساكنها قلّت الصنائع ، ومن أجل ذلك تفقد الإجادة في البناء والإحكام ، ثم تقلّ الأعمال لعدم الساكن فيقل جلب الآلات من الحجر والرّخام وغيرهما ، وتتآكل عملية البناء بصورة تدريجية إلى أن تظهر عليها علامات البداوة فيغزوها الخراب [٢] .

ويحدّد الباحث مفهوم العُمران بقوله : " يختص العُمران بتصوير التمدين والتحضُّر والتأثر بتقاليد الحضارات الأخرى، والرغبة في بناء مجتمع يواكب المجتمعات

١ - ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص٣٧٩-٣٩٦
٢ - المصدر السابق : ص٣٩٦-٣٩٨

المتحضِّرة ، ويظهر العُمران في التشييد والبناء وإقامة القناطر والجسور وبناء المصانع وتشييد القصور، وزخارف الأبنية والنقوش والتصوير والأقبية ، وحفر الجداول والقنوات وبناء المساجد والكنائس " [١] .

وبعد هذا العرض المفصَّل لمفهوم العُمران، فإنني سأتناول جزئيةً محدّدة من مظاهره وأبعاده والمتمثلة في العُمران البنائي " الحضري " كما وصفه ابن خلدون وكذلك الجانب الصناعي ، أي ستتعامل مع الجانب الحضاري المتعلِّق بالبناء والصناعة ، فالبناء يشتمل على : المُدن ، القرى، القصور ، الحصون، السُّدود ، الآبار، المساجد ، الكنائس ، الأديرة ، السجون، وكذلك ما يتعلّق بالجانب الصّناعي من صناعة السيوف والسّهام ، والورق، والملابس .

وعلى أية حال فإن الحديث عن الجانب البنائي والصناعي كمظاهر عُمرانية يلتقي مع مفهوم ابن خلدون الآخر للعُمران وهو الاجتماع الإنساني " الإنسان مدني بطبعه " فالبناء يتمّ ضمن جهدٍ إنساني مشترك ، وكذلك الصّناعة .

العمران في القرآن الكريم

وإذا ما استعرضنا مفهوم العُمران في القرآن الكريم فإننا نلحظ أن له أكثر من دلالة، وسيتضح ذلك من خلال السياق، فقد قال تعالى: ﴿ أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا أشدَّ منهم قوة، وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها ، وجاءتهم رسلهم بالبينات ، فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ [٢] .

١ - مجلة كلية الآداب ، جامعة الإمارات العربية المتحدة ، العدد الخامس ١٩٨٩، الأثر الحضاري في شعر عدي بن الرقاع العاملي ، ص٣٦٩ .
٢ - سورة الروم : آية ٩

وإذا ما توقفنا عند مفهوم العُمران هنا فإننا نجد أن الأمم الماضية قد عمرت الأرض فكانوا أكثر أموالاً وأطول أعماراً وأكثر أعداداً ، فحفروا الأنهار وغرسوا الأشجار وبنوا الدُّور وشيّدوا القصور ، ثم تركوها وصاروا إلى الهلاك والثبور [١].

وقال تعالى : ﴿ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله إنّما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ [٢] .

العمران في الشعر الجاهلي

وفيما يلي دراسة لظاهرة العُمران في الشعر الجاهلي ولا سيما العمران المادي (البناء) ، ويظهر مفهوم العُمْرَان جلياً عند الأعشى في قوله :

إنّ القُـــــرى يومـــــاً ستهـــــ ـــــلك قبْـــــل حـــــقٍّ عـــــذابها

وتصـــــير بعـــــد عِمـــــارة يومـــــاً لأمـــــر خرابهـــــا [٣]

إن كلمة القُرى تدلّ على العُمران بل هي مظهر من مظاهره ، وشكل من أشكاله ، والكلمتان العِمارة والخراب ثنائية ضديَّة ، تشكل محوراً أساسياً تتحرّك في مداره الأحداث وتتوالد ، فالقُرى عُمران تموج بالبناء والحيوية والحركة والحياة ، ولكنّ هذه الحياة لا تستمر فسرعان ما تتحوّل إلى موت والبناء إلى هدم ، والحركة إلى سكون ، فالخراب نقيض العُمران ؛ لأنه يشكِّل هدماً وتدميراً ، فالعُمران الحضاري يتحوّل إلى

[١] - الطرسي، أبو علي الفضل بن الحسن : مجمع البيان في تفسير القرآن : ، دار الباز، مكة المكرمة

٢ - سورة التوبة : آية ١٨

٣ - الأعشى : الديوان ، شرح محمد محمد حسين، مؤسسة الرسالة، بيروت،ط ٧ ، ص٣٠١ .
حقّ الأمر : وجب وثبت

خراب ، فكل شيءٍ إلى زوال ونهاية ، وستهلك القُرى يوماً وتبيد قبل أن يتحقّق العذاب ويحلّ بها ، وتصير بعد بهائها وعماراتها إلى الخراب .

ويصف أبو الصّلت والد أُميّة منطقة مدينة " وجّ " ، وهي مدينة الطائف ، تلك المدينة التي حباها الله بموقعها الجغرافي المتميز ، وطقسها الجميل ، وما تشتهر به من كثرة جناناها من كروم العنب ، والرمان ، والزيتون ،التي ترويها المياه العذبة الصافية التي تجري في تلك الحقول، فيقول:

نحـن المبنُّـون فـي و ج علـى شَـرَف تلقـى لنـا شُـفَعَاً منـه وأركانـا

إلـى أن يقول: ويانعٌ من صنوف الكرم منـه ونعصـرُه خـلاًّ ولـذّانا

قـد ادْهأمّـت وأمسـت ماؤهـا غـدق يمشـي معـاً أصـلها والفـرع أبّانـا

فيهـا كواكـب مثلـوجٌ مناهلـُها يشفي الغليل بها من كان صَدْيانا[1]

ويقدّم عدي بن زيد وصفا لمدينة صنعاء التي كانت تشتهر بخيراتها ونعيمها الوفير ، وحكامها من السادة المشهورين ، كما انها كانت تربض على التلال وتحيط بها الجبال من كل جانب ، وتكاد بناياتها تناطح السحاب علوا ، يقول :

مـا بعـد صـنعاء كـان يعمرهـا سـادات ملـك جـزل مواهبهـا

يرفعهـا مـن بنـى لـدى قـزع المـزن وتنـدى مسـكا محاربهـا

١ - الحموي ، ياقوت : معجم البلدان، ، دار صادر، بيروت، ط٢ 1995 ، م٥ ، ٣٣٦ .
ادهأمت: اصبحت

محفوفـــة بالجبـــال دون عـــرى الـــ كيـــد فيهـــا ترقـــى غواربهـــا

يـــانس فيهـــا صـــوت النهـــام إذا جاوبهـــا بالعشـــيي قاصـــيها[1]

قزع المزن : قطع السحاب المتفرقة في السماء ، النّثهام : البوم

ويؤكد عدي بن زيد على ان موقع المدن اليمنية والقصور كانت في اعالي الجبال ، ومن الصعوبة الوصول إليها إلا من خلال الدرج الذي يسلكه الانسان للوصول الى تلك المباني ، ويشير عدي إلى موقع السجن الذي أُودع فيه قائلا [2]

تركـــوني لـــدى قصـــور واعـــرا ض قصـــور لـــزيفهن مراقـــي

كما يشير أمية بن أبي الصلت إلى مواقع قصر اعيط الذي يربض على تل عال ومرتقاه صعب المنال ، ولعلّ في هذا إشارة مكانة قومه من حيث علوّ شانهم ومكانتهم الرفيعة وشرفهم ومنعتهم، كما يذكر مدينة الطائف من حيث بناؤها فيقول :

نحن ثقيف عزنا منيع أعيط صعب المرتقى رفيع[3]

ويصف عدي ممدوحه بانه لا يسكن في الأرض المنخفضة بل مثواه ومسكنه في القصور العاليات من الجبال الشاهقة .

لا الغيابـــات منتـــواك ولكـــن فـي ذرى مشـرف القصـور ثواكـا[1]

١ - العبادي ، عدي بن زيد :الديوان ،حققه وجمعه : محمد جبار المعيبد منشورات وزارة الثقافة والارشاد _ مديرية الثقافة العامة بغداد ، ١٩٦٥ م : ص٤٥-٤٨

٢ - المصدر نفسه ٨٨- ٨٩ الزيف : شرف القصور واحدتها زيفة

٣ - المصدر نفسه: ص ٤١٧

قال مهلهل بن ربيعة يرثى أخاه كليباً :

هُـدَّتْ حصـونٌ كـنّ قبـلُ مـلاوذا لـذوي الكهـولِ معـا وللشـبَّان

أضـحتْ وأضـحى سُـورُها مـن بعـد هـ مُتهـدَّمَ الأركـان والبنيـان

فـأبكينَ سـيَّدَ قومـه واندبنـه شـدّت عليـه قبـاطيّ الأكفـان[٢]

وكذلك الحال منازل قوم النابغة الذبياني يصفها بالقول :

وحلّـت بيـوتي فـي يفـاع ممنّـع تخـال بـه راعـي الحمولـة طـائرا

تزلّ الوعول العصم عن قذفاته وتضحي ذراه بالسحاب كوافرا [٣]

من خلال هذا النص يظهر ان منازل قوم النابغة تربض في الجبال الشاهقة حيث تبدو المساكن صغيرة لمن ينظر إليها ، واما الوعول فتقطن بالقرب منها وهذا دليل أن هذه المساكن يصعب ارتيادها، أما زهير بن ابي سلمى فيفتخر على بني تميم ويبين قوة قومه وتفوقهم :

ألا أبلـغ لـديك بنـي تمـيم وقـد يأتيـك بـالخبر الظنـونُ

---

١ - المصدر نفسه: ص ٤٢٨

٢ - ابن ربيعة ، المهلهل : الديوان ، طلال حرب، دار صادر، بيروت، ط١

٣ - النابغة الذبياني، ديوان النابغة الذبياني، تحقيق شكري فيصل، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٦ ص٦٩-٧٠ الحمولة : الإبل التي يحمل عليها . العصم : الوعول التي في أيديها وأرجلها بياض مع سواد . وسميت عصما لاعتصامها بالجبال .

بـــأنّ بيوتنـــا بمحـــلّ حجـــر بكـــل قـــرارة منهـــا نكـــون

إلـــى قلهـــى تكـــون الـــدار منّـــا إلـــى أكنـــاف دومـــة فـــالحجون

بأوديـــــــة أســـــــافلهن روض وأعلاهـــا إذا خفنـــا حصـــون [1]

تظهر المعالم العمرانية المادية في هذا النص من خلال ذكر المنازل والبيوت وهي حجر ودومة والحجون وقلهى ، التي تربض في اعالي الجبال ، ويشير الشاعر إلى بعد عمراني آخر يتمثل بالزراعة التي كانت مهنة القوم ولا سيما في الاودية التي تنتشر فيها الرياض ، وهذا مؤشر على استقرار القوم وتحضرهم .

وصـــــحِبْنَا مـــــن آلِ جَفْنـــــةَ أمـــــلا كـــاً كرامـــاً بالشّـــام ذات الرفيـــفِ

وبنـــــي المنـــــذر الأشـــــاهبِ بـــــالحي رة يمشـــــون غُـــــدْوَةً كالسُّـــــيوفِ

وَجُلُنْـــــدَاءَ فـــــي عُمَـــــانَ مقيمـــــاً ثم قيساً فـي حضـرمو تَ المُنيـفِ

قاعـــداً حولَـــه النّـــدامى فمـــا ينـــف كّ يُـــؤتَى بُمُـــوكر مجـــدُوفِ

وَصَـــــدُوحإذ يُهيَّجُهَـــــا الشُّـــــر بُ ترقّـــتْ فـــي مِزْهَرمنـــدُوفِ[1]

١ - ابن أبي سلمى ، زهير ، ديوان زهير بن أبي سلمى : شرح وتحقيق محمد حمّود – دار الفكر، ١٩٩٥اللبناني، بيروت، ط ١ ، ص ١٢٤ .

وفي هذه الأبيات يتوقف الشاعر عند المعالم العُمرانية " الشام، والحيرة، وعُمان، وحضرموت " فقد لعب الشاعر ولَهَا في المرابع والمصايف، وصحب ملوكاً يتميزون بالكرم ونُبل الأخلاق وهم ملوك آل جفنة في الشام ذات الخصب والزراعة، وصحب بني المنذر ملوك الحيرة وهؤلاء بيض الوجوه يمضون في الغداة كأنهم السيوف، والتقى الشاعر بجلنداء في عُمان وقيس في حضرموت حيث القصور الشامخة البنيان وفيها شارك بمجالس اللهو والطرب والخمر والغناء على أوتار العود، وهذه المعالم العُمرانية تفوح من ثناياها رائحة اللهو والطرب، ولعلَّ هذا الفرح تزداد نشوته وفاعليته حينما يكون المكان المُعَدُّ لذلك عالياً مرتفعاً لأن هذا يجلب الدَّفءَ والحيويَّة والنشاط في ظلال الأجواء المعطَّرة بالنسيم العليل، ومن هنا يكمن سرّ اختيار الشاعر النّدامى حيث كؤوس الخمر والغناء والطرب في قصور حضرموت المنيفة .[٢]

ويصف الأعشى حصن المشقّر الذي يربض في مكان عال ، وقد أُودع فيه أسرى الحروب[٣] :

سـائلْ تميمـاً بهـم أيّـامَ صَـفْقَتِهِمْ لمَّـا رآهـمْ أَسـارَى كُلُّهُـمْ ضَـرَع

وَسْـطَ المُشَـقَّر فـي عَيْطـاءَ مُظْلِمَـةٍ لا يسـتطيعون فيهـا ثَـمّ مُمْتَنَـعَ

---

١ - الأعشى : ديوان الأعشى، شرح محمد محمد حسين، مؤسسة الرسالة، بيروت،ط ٧،١٩٨٣،٣٦٣ المربع: موضع الإقامة في الربيع، المصيف: موضع الإقامة في الصيف، ال جفنة: ملوك العراق في الجاهلية، الأشهب: الأبيض، الغدوة: من الفجر الى طلوع الشمس، جُلنداء: صاحب عمان من الازد، موكر مملوء، مجدوف: مقطوع، صروح: مغنية تصدح بصوتها. ترقت: تصدعت بالغناء،المزهر:العود.

٢ - بكور ، حسن : المجلة العربية للآداب /جامعة اليرموك / المجلد ٢ ، العد د ١ ، ٢٠٠٥ م ، البعدان الطبيعي والمادي للعمران في الشعر العربي من العصر الجاهلي الى نهاية العصر الأموي ص٦١- ٦٢

٣ - ديوان الأعشى : ص ١٥٩

فقال للِمَلْك سرَّح منهُمُ مائة رِسلاً من القول مخفوضاً وما رَفَعَا

ففكَّ عن مائةٍ منهم وثاقَهُمُ فأصبحوا كُلَّهمْ من غُلَّه خُلِعا

بهم تقرَّب يوَم الفِصح ضاحية يرجُو الإله بما سدّى وما صنعا

ويمدح الأعشى السَّموْأل بحصنه المشهور الأبلق [1] :

بالأبلقِ الفَرْد من تيماءَ منزِلُهُ حِصْنٌ حصينٌ وجارٌ غيرُ غدّار

ويفتخر الأعشى بإحدى مغامراته في المعاقل المحصنة – التي بناها الأقدمون – المنيعة التي لا يطالها إلا الحمام :

ولقد أنالُ الوَصْلَ في مُتَمَنَّع صَعْبٍ بناه الأوَّلون مَصَادِ

مَنَعَتْ قياسُ الماسِخيّةِ رأسَه بسهامِ يثْرِبَ أو سِهَام بَلاَد

وَتَرى الحَمَام مُعَانقاً شُرُفاتِه يَهْدِلْنَ بين أجنَّةٍ وحَصَاد[2]

وقال الأعشى مفتخراً بقومه ومذكّراً بآثارهم العُمرانية:

١ - المصدر نفسه : ص ٢٢٩

٢ - ديوان الأعشى : ص ١٧٩-١٨٠

ألم ترَ أنّ العَرْضَ أصبح بطنُه نخيلاً وزرعاً نابتاً وفصافصا
وذا شُــرُفات يُقْصِــرُ الطيــرُ دونــه ترى للِحَمَام الوُرقِ فيه قرامِصَ [1]

يرسم الأعشى لوحة جميلة كأنها ثوبٌ موشى ومزركش بشتى الألوان الزاهية فبساط هذه اللوحة الوديان ورؤوس الجبال، وعناصرها الأشجار والطيور، وتحيط العِرض (وادي العرضِ) غابةٌ من أشجار النخيل والزرع وقمم الجبال مكان تُشرف من عليائه القصور، وفي هذه اللوحة تبرز ثنائية القمة والقاعدة، فالقصر والشُرُفات والحمام تمثّل القمَّة، وبطن العِرضِ والنبات والأشجار تمثّل القاعدة، فالقاعدة فاعلة وعاملة في أرضها ومتوحَّدة ومتجذّرة في الأرض لأنها مصدر الخير والعطاء ومن هنا جاء الفعل أصبح العائد إلى العرِض، مؤشراً على عملية الفاعلية والبناء والعمل، فقد يدلّ هذا الفعل " أصبح " على أن بطن الوادي كان غير مُستَغَلٍّ، لاسيما أن " أصبح " تفيد التحوُّل من حال إلى حال، فقد تحوَّل هذا الوادي بفعل العمل إلى أرض معطاءة منتجة، ومن هنا جاءَت الكلمات: النخيل، والزرع النابت، والفصافص (علف الدّواب)، كدوالّ على أن ثمة حياة وخصباً في هذا المكان (القاعدة)، وأما القمّة التي تمثّلها القصور فهي رابضةٌ في موقع مرتفع، ويأتي الفعل " يقصُر " ليعزَّز عملية الارتفاع والشّموخ والقمّة، وتتقّوى دلالته هذه حينما يرتبط بقوة فاعلة (الطير) التي تسكن القمّة، فإذا كان الطير يعجز عن معانقة شُرُفات القصور، فمعنى ذلك أن موقعها شاهقٌ يصعب الوصول إليه، ومع ذلك ترى الحمام تبني أعشاشها على هذه القصور [2].

[1] - المصدر نفسه: ص ٢٠١، العرض: الوادي. فصافص: علف الدواب. القرامص: أعشاب الطيور.

٢ - بكور ، حسن : المجلة العربية للآداب /جامعة اليرموك / المجلد ٢ ، العد د ١ ، ٢٠٠٥ م ، البعدان الطبيعي والمادي للعمران في الشعر العربي من العصر الجاهلي إلى نهاية العصر الأموي ص٦٥-٦٦

ويشير حاتم الطائي إلى الحصون ، ويؤكد على أن ساكن العلياء مثل ساكن الصحراء في نظر الموت ، وكذلك من يلبس الدروع ومن لا يلبسها في نظر الموت سيان :

وما أهلُ طَودٍ مكفهرة حصونُه من الموت إلا مثل من حلّ في الصَّحر

وما دارعٌ إلا كآخر حاسر وما مقترإلا كآخر ذي وفر [١]

ويحدَّد لبيد بن ربيعة العامري موقع قصر ناعط والمشقّر وحصن دومة الجندل:

وأفنى بناتُ الدَّهر أربابَ ناعط بمُسْتَمَع دون السَّماءِ ومَنْظَر

وأعْوَصْنَ بالدُّوميَّ من رأسِ حِصنِه وأنــزلْنَ بالأســباب ربَّ المُشَــقَّر [٢]

يعرض هذان البيتان لمعالم عُمرانية هي: قصر ناعطٍ، وقصر المُشَقَّر، وحصن دُومةَ الجندل، وترتبط بهذه المعالم قضية الموت والزّوال والفناء، ويطرح السؤال نفسه هنا: لمَ ربط الشعراء الموت بالقصور ؟ أغلب الظنّ أن ثمّة فلسفة وراء ذلك.

وتتلَّخص أبعادها في تحصين القصور ومواقعها الشامخة المرتفعة، وعودة إلى قضية تحديد موقع هذه المعالم العُمرانية فإننا نراها تقع في مكان عاليطاول السَّماء علواً.

١ - الطائي ، حاتم : ديوان حاتم الطائي، ص ٦٤ . طود: النحيل العظيم الشلهق. المكفهر: الشديد الظلمة. دارع: الذي يلبس لباس الحديد. الحاسر: نوع من لا درع له من الجنود، تنوط: تتعلق بالشيء.

٢ - لبيد بن أبي ربيعة : ديوان لبيد ابن أبي ربيعه. شرح عمر فاروق الطباع، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط ، ١٩٩٧ م ص ٦٩ . بنات الدهر: المصائب. ناعط: اسم قصر عال مشرف الدومي: ملك الجندل. الاعوص: المنقلب. رب المشقر: صاحبه

ويبدو أن الحياة في هذه القصور كانت تزخر بالأمن والرَّخاء والسعادة، (أرباب ناعط بمُستمع دون السماء ومنْظر)، وتأتي الأفعال (أفنى، وأعوص، وأنزل) لتؤكّد أن هناك حياةً

سعيدة تحوَّلت بفعل بنات الدَّهر إلى النقيض وإلى الهدم بعد البناء، فالفعل أفنى حدثٌ مُدمَّر لأصحاب قصر ناعط الذين كانوا يسكنون في حصنهم الذي يطاول السماء حيث سعة العيش والمناظر الخلابّة الحسنة، والفعل أعوص يعني الإنقلاب، وهذا حدثٌ تغييري وتحويلي من حياة إلى أُخرى فقد نقل ملك دُومة الجندل من رأس حصنه إلى موقع آخر هو الهلاك. والفعل أنزل يعني إحداث تغييري من القمة إلى القاعدة أو من الأعلى إلى الأسفل أو من القمة إلى باطن الأرض، وكل هذه الأفعال (أفنى، وأعوص، وأنزل) تحمل في مضمونها خطاباً سوداوياً تشاؤمياً تأخذ على كاهلها القيام بمسؤولية التغيير نحو الفناء والزوال، ومن هنا تبرز ثنائية الحياة والموت، فأرباب القصور في حياة مطمئنة آمنة تتحوَّل هذه السعادة إلى فناء وإلى الموت بآليات خطابية: أفنى، وأعوص، وأنزل[1]

الخاتمة

إنّ المتتبع لموضوع العمران والحضارة في الشعر الجاهلي يلحظ عدة استنتاجات ومنها ، أن العُمران والحضارة بكل تجلياتها وتداعياتها لم تكن غائبة عن الشاعر الجاهلي ، بل كانت حاضرة في وجدانه وفكره ، لأنه كان يعايشها ويستشعر بها في حياته اليومية ، ومن هنا انعكست في قصائده الشعرية ، وبرزت كمعلم حضاري في

١ - بكور ، حسن : المجلة العربية للآداب /جامعة اليرموك / المجلد ٢ ، العد د ١ ، ٢٠٠٥ م، البعدان الطبيعي والمادي للعمران في الشعر العربي من العصر الجاهلي الى نهاية العصر الأموي ص٧٠- ٧١

كثير من فنّه الشعري ، ولعلّ هذه الحقيقة تؤكّد على انّ الشاعر الجاهلي لم يكن منفصلا عن مجتمعه ومظاهر حياته ، بل كان يعاين الحياة ويترجم ما يراه بأم عينيه ، بطريقته الفنية الخاصة وأسلوبه الذي يتميز به ، ولغته التي يرتضيها في التعبير عن قضاياه وهمومه ، ولعلّ مما يلفت انتباه الدارس لظاهرة العمران في الشعر الجاهلي يلحظ أن هذه الظاهرة لم تتحدّد بشاعر واحد ، بل هناك مجموعة من الشعراء الذين تناولوا هذه الظاهرة في أشعارهم ، مما يدلّل بما لا يقبل مجالا للشك أن هناك شكلا من أشكال الحضارة والتمدّن كان سائدا في العصر الجاهلي بصورة معينة وعلى نمط خاص ، وانتبه الشاعر الجاهلي لهذه الظاهرة وتناولها في شعره ليبرهن أن الشعر والعالم المادي توأمان ، وما الشعر الحي إلا ذلك الفن المواكب للحركة المادية والمتفاعل معها والمعبّر عنها والناطق باسمها مع بعض التحوير وإضفاء البعد الفني والشاعري عليها ...

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- ابن أبي سلمى ، زهير ، ديوان زهير بن أبي سلمى : شرح وتحقيق محمد حمّود – دار الفكر اللبناني ، ١٩٩٥، بيروت، ط ١
- ابن خلدون : المُقدّمة: عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، دار الجيل، بيروت
- ابن منظور ، لسان العرب، ، دار صادر، بيروت .
- الأعشى : الديوان ، شرح محمد محمد حسين، مؤسسة الرسالة، بيروت،ط ٧
- بكور ، حسن ، المجلة العربية للآداب /جامعة اليرموك / المجلد ٢ ، العد د ١ ، ٢٠٠٥ م ، البعدان الطبيعي والمادي للعمران في الشعر العربي من العصر الجاهلي الى نهاية العصر الأموي .
- الحموي ، ياقوت : معجم البلدان، ، دار صادر، بيروت، ط19952. م٥
- الذبياني ، النابغة ، الديوان ، تحقيق شكري فيصل، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٦
- الطاهر ، أحمد الزاوي، دار الكتب العلمية بيروت، باب العين، عمر وانظر فاكهة البستان : عبد الله البستاني ، الطبعة الأمريكية ، بيروت، ١٩٣٠ .
- الطرسي ، أبو علي الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن : ، دار الباز، مكة المكرمة .
- العبادي ، عدي بن زيد :الديوان ،حققه وجمعه : محمد جبار المعيبد منشورات وزارة الثقافة والارشاد _ مديرية الثقافة العامة بغداد ، ١٩٦٥ م
- الفراهيدي ، الخليل بن أحمد : كتاب العين : ، تحقيق : د. مهدي المخزومي وآخرون
- لبيد ابن أبي ربيعه : الديوان. شرح عمر فاروق الطباع، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط ، ١٩٩٧
- المهلهل بن ربيعة ، الديوان ، طلال حرب، دار صادر، بيروت، ط١ .

- مجلة كلية الآداب ، جامعة الإمارات العربية المتحدة ، العدد الخامس ١٩٨٩، الأثر الحضاري في شعر عدي بن الرقاع العاملي